من أسرار ظاهرة التقديم والتأخير في (كتاب البرهان في توجيه متشابه القرآن) لمحمّد بن حمزة بن نصر الكرمانيّ (٥٠٥هـ)

م.م. رقية محمد أمين كاظم

خلاصة البحث:

التقديم والتأخير من الفنون التعبيرية التي تميّز بها القرآن الكريم، وهي سِمة أسلوبية لها عظيم الأثر في روعة الأسلوب وإبرازه بصورة بليغة تفي بالمعنى وتطابق مقتضى الحال، وتكشف خبايا النفوس وتطوع المعاني للاعتبارات المناسبة للمقام. وقد أولاه علماء البيان العربي في مختلف اختصاصاتهم عناية فائقة، وفتشوا عنها في نصوص متنوعة لإظهار جمالياتها، وروعتها الفنية التي تثار في النفوس، وكان النص القرآني من أفضل تلك النصوص إذ بحثوا فيه عن أسرار ظاهرة التقديم والتأخير ولا سيما فيما تشابه من الآي المبارك، إذ حاول علماء البلاغة أن يكشفوا عن بعض روائع التقديم والتأخير في الآيات المباركات.

وكان الكرماني من البيانيين الذي انشغلوا بإظهار علل ظاهرة التقديم والتأخير في متشابه القرآن الكريم، وبيان أسبابها وكانت أغلب الاسباب التي ذكرها الكرماني هي لموافقة السياق، أو لمناسبة الفواصل، أو للترتيب الزماني، أو المكاني وغيرها من الأسباب، وفيما يلي بعض الشذرات المختارة من هذه الآيات للوقوف على أسرار التقديم والتأخير التي عرضها الكرماني.

الكلمات المفتاحية : التقديم والتأخير، متشابه القرآن، الكرماني.

One of the Secrets of the Phenomenon of Precedence and Delay in (the Book Al-Burhan fi Tawjih Mutashabih al-Qur'an by Muhammad bin Hamza bin Nasr Al-Kirmānī)

Assist. Lecturer: Ruqaya Mohammed Amin Kadhem

Abstract:

The precedence and delay are expressive arts distinguished by the Holy Quran, and they are stylistic features that have a great impact on the beauty of the style and its effective presentation in a concise manner that matches the context and reveals the depths of souls and adapts meanings to the appropriate considerations for the occasion. Scholars of Arabic rhetoric in various specialties have given them utmost attention, searching for them in various texts to display their aesthetics and artistic magnificence that stir the souls. The Quranic text was among the best of these texts as they examined it for the secrets of precedence and delay, especially in the similarities found in the blessed verses. Rhetorical scholars attempted to reveal some of the masterpieces of precedence and delay in the blessed verses.

Al-Kirmānī was among the scholars who were preoccupied with demonstrating the reasons behind the phenomenon of precedence and delay in the similarities of the Holy Quran, and explaining its causes. Most of the reasons mentioned by Al-Kirmānī were due to linguistic conciseness, appropriateness of pauses, temporal or spatial arrangement, and other reasons. Below are selected excerpts from these verses to understand the secrets of precedence and delay as presented by Al-Kirmānī.

Keywords: The Precedence and Delay , Quranic Similarity , Al-Kirmānī.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٩ – حزيران لسنة ٢٠٢٤

مقدمة

الحمد لله الحنان المنان، الرحيم الرحمن، الذي خلق الإنسان علّمه البيان، وجعل كتابه معيناً لقلبه الظمآن، وجعله ربيعاً له في كل مكان وزمان، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، خير من وطأ الأرض من الأولين والآخرين، صفوة أنبيائه ورسله أجمعين، أبي القاسم محمّد صلوات الله عليه وعلى آله الغر الميامين.

أما بعد...

ظاهرة التقديم والتأخير من الظواهر النحوية المهمة في اللغة العربيّة التي تظهر روائع اللغة وجماليات التعبير؛ لأنّها تؤدي معانيَ ودلالات كثيرة جداً ولاسيما في النص القرآني وقد بذل العلماء جهداً كبيراً في استخراج دلالات هذه الظاهرة الفنية لاكتشاف أسرارها وبيان روعتها.

ومن أولئك العلماء (محمد بن حمزة بن نصر الكرماني المعروف بـ(تاج القرّاء) (المتوفى: نحو ٥٠٥هـ)) في كتاب (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)؛ إذ اعتنى بكتابه هذا بأسرار التعبير القرآني، وذكر الفروق بين التعبيرات القرآنية في الآيات المتشابهة في كتابه الذي يمثل أحد المصادر المهمة في كتب المتشابه اللفظي، وآراؤه التي علل بها الفرق بين الاستعمالات القرآنية من الآراء المعتمدة عند بعض المفسرين.

لقد اعتنى البحث بدراسة أسرار ظاهرة التقديم والتأخير التي حاول الكرماني من خلالها بيان براعة القران الكريم وابداعه في استعمال المفردة اللغوية عن طريق عرض الأمثلة التي توضح هذه الجوانب الجمالية والبلاغية في النص القرآني.

أما المنهج الذي اتبعته في البحث فهو المنهج الاستقرائي التحليلي، والآلية كانت كالآتي: اختيار بعض الأمثلة واذكر تعليل الكرماني كما جاء في كتابه، ويُلحَق بتوضيح بسيط، ثم عرض رأي علماء المتشابه اللفظي كالخطيب الاسكافي (٤٢٠هـ)، وابن الزبير الغرناطي (٧٠٨هـ)، وابن جماعة (٧٣٣هـ) في كتبهم التي خُصِصت لدراسة المتشابه اللفظي، وفي بعض الأمثلة أعرض آراء بعض المفسرين ممن وافقوا الكرماني او ممن جاؤوا برأيٍ جديد او مخالف، وفي بعض الآيات قمت بالإشارة إلى بعض الدلالات الايحائية التي ألمحُها من خلال تتبع السياق القرآني.

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ - المجلد ٤٩ - حزيران لسنة ٢٠٢٤

وكان الغرض من موازنة رأي الكرماني مع غيره من أصحاب المتشابه اللفظي أو بعض المفسرين لبيان أثر تعليلاته في لاحقيه وتأثره بسابقيه، وإظهار خصوصية تفرده ببعض الآراء.

أما مصادر البحث التي رجعت إليها في البحث فهي على قسمين:

القسم الأول: كتب المتشابه اللفظي، وبعض التفاسير مثل: **تفسير الكشّاف للزمخشري** (٥٣٨هـ)، **ومفاتيح الغيب للرازي (٦٠٦هـ)، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي** (٧٤٥هـ)، **وتفسير إرشاد العقل السليم الى مزايا القران الكريم لأبي السُّعود** (٩٨٢هـ)، **وتفسير ابن عاشور التحرير والتنوير(١٣٩٤هـ)**، وغيرها.

اما القسم الثاني: فهو كتب البيان القرآني مثل كتاب **(خطرات في اللغة القرآنية: أ.د.فاخر هاشم الياسري)**، و **(تجليات التعبير اللغوي في النص القرآني: أ.د.فاخر هاشم الياسري)** و**(خصائص التعبير القرآني واسراره البلاغية: د.عبد العظيم المطعني)**، وغيرها

البحث:

التقديم والتأخير من الفنون التعبيرية التي تميز بها القرآن الكريم، وقد أولاه علماء البلاغة عناية فائقة بوصفه أحد أصول علم المعاني الذي به تعرف أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال (١). والتقديم والتأخير السبيل إلى نقل المعاني في ألفاظها للمتلقين مرتبة بحسب أهميتها في ذهن المتكلم، فيكون الأسلوب صورة صادقة لإحساس المتكلّم وصدق مشاعره (٢).

وتزخر الآيات المتشابهة في القرآن بهذا الأسلوب إذ نجد القرآن يقدم لفظة في آية ويؤخّرها في أخرى، ولا شك في أن علماء البيان قد التفتوا الى هذا الأسلوب في متشابه القرآن وحاولوا إعطاء بعض أسرار التقديم والتأخير في الآيات المباركات. والكرماني علل الكثير من الآيات وأغلب الاسباب التي جاء بها هي موافقة السياق، أو لمناسبة الفواصل، أو للترتيب الزماني، أو المكاني وغيرها من الاسباب، وفيما يلي بعض الشذرات المختارة من هذه الآيات للوقوف على أسرار التقديم والتأخير التي عرضها الكرماني.

١-تقديم جملة (امرأتي عاقر) وتأخيرها:

إنّ القرآن يقدم جملة (أمرأَتِي عاقِرٌ) على جملة (بلغت من الكبر) في قوله تعالى: **{ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا }** (سورة مريم ٨)، ومرة يؤخّرها في قوله تعالى:

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٩ – حزيران لسنة ٢٠٢٤

{ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} (سورة آل عمران ٤٠).

ويعلل الكرماني ذلك بقوله: " قدّم فى هذه السورة ذكر الكبر، و أخّر ذكر المرأة. و أما فى [سورة] مريم فقدم ذكر المرأة و أخّر ذكر الكبر؛ لأنَّ فى (مريم) قد تقدم ذكر الكبر فى قوله: {وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً}.و قد تأخر ذكر المرأة فى قوله: {وَ أني خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَ كانتِ أمرأَتِي عاقِراً}(٣).ثم أعاد ذكرهما فأخر ذكر الكبر ليوافق عِتِيًّا فواصل ما بعدها من الآيات و هى سَوِيًّا وَ عَشِيًّا و صَبِيًّا(٤)".(٥)

فيذكر الكرماني سببين للتقديم والتأخير في هذه الآية: الأول : سياق الآية في سورة مريم قد تقدم فيه ذكر الكبر عندما بدأ زكريا (عليه السلام) دعاءه وأخّر ذكر عقم زوجته، فعندما أعاد الكلام بعد البشارة ، قدّم عقر امرأته وأخّر كبره؛ لأنَّه تقدم في بداية السورة. أما السبب الثاني: هو مناسبة الفواصل في سورة مريم. وقد تابع صاحب كتاب ملاك التأويل الكرماني في رأيه لمناسبة الفواصل إذ بذكر أن السورة جرت على نظم فاصلة واحدة فجاء التقديم والتأخير لمناسبة الفواصل(٦).

أما ابن جماعة فيرى أن التقديم والتأخير لموافقة رؤوس الآيات في مريم بقوله: عتياً، وعشياً، وجنياً. ويورد سبباً آخر وهو التفنن بالقول أي عندما قدّم الكبر وأخّر مسألة زوجته ، أعادها بتأخير كبره على عقم زوجته (٧)، وهو رأي الكرماني نفسه مع تغيير التعبير. وما جاء عن المفسرين لم يخرج عن إطار هذه التعليلات فقد جاء في البحر المحيط أن التقديم والتأخير لموافقة رؤوس الآيات (٨).

وذكر الآلوسي في تفسيره بعض الآراء التي تعلل تقديم الجملة وتأخيرها في هذه الآية ومنها رأي أبي السعود حيث يقول: ((في إرشاد العقل السليم(٩) لعل ذلك لما أنه قد ذكر حاله في تضاعيف دعائه و أنما المذكور ها هنا بلوغه أقصى مراتب الكبر تتمة لما ذكر قبلَ و أما هنا لك فلم يسبق في الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته لما أن المسارعة إلى بيان قصور شأنه أنسب. و قال بعضهم: يحتمل تكرر الدعاء و المحاورة و اختلاف الاسلوب للتفنن مع تضمن كل ما لم يتضمنه الآخر فتأمل و الله تعالى الموفق، و الظاهر أنه عليه السّلام كان يعرف من نفسه أنه لم يكن عاقراً، و لذلك ذكر الكبر و لم يذكر العقر و أنما قال عليه السّلام ما ذكر مع سبق دعائه بذلك و قوة يقينه بقدرة الله تعالى لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عمران استعظاماً لقدرة الله تعالى و اعتداداً

بنعمته تعالى عليه في ذلك بإظهار أنه من محض فضل الله تعالى و لطفه مع كونه في نفسه من الامور المستحيلة عادة و لم يكن ذلك استبعادا كذا قيل))([١٠]).

نخلص أن السر في عكس الترتيب بين سورتي آل عمران ومريم أمران، أولهما أن زكريا (ع) كان يمنعه من الإنجاب سببان : عقر امرأته وكبر سنه، وهذان السببان يخطران في باله بدرجات متفاوتة وإذا أقررنا هذا الأمر، فإن السبب الذي يأتي في خاطره يقدمه على ما عداه، ففى سورة آل عمران أفاد التعبير نفسه أن الكبَر هو السبب الأظهر عند زكريا (ع)، أما في سورة مريم فقد قدم العُقْر على بلوغه الكبَر؛ فلأنَّ العُقْر كان السبب الأظهر.

والأمر الآخر الذي قد يكون سببا في التقديم والتأخير أن زكريا عليه السلام قد تقدم على قوله هذا في سورة مريم شكواه إلى ربه من الكبَر: (رَبِّ أني وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) ، ومع هذا فقدَ تلقى البشرى من ربه بأنه وُهبَ له غلامٌ. . فكأن الله ألهمه، أو هو فهم من البشرى أن ما شكاه من الكَبر ليس بسبب مانع من الانجاب. إذن فالعُقْر ما زال باقياً في خاطر زكريا فقدمه على الكبَر. فالتقديم والتأخير أنما هو بحسب ما هو أظهر([١١]).

ومن الممكن أن نستقرئ دلالة التقديم والتأخير من ناحية نفسية، وهي مشاعر زكريا وما يدور في باله عندما دعا الله سبحانه فهو يعرف أن كبر سنه وعقر زوجته سببان رئيسان يمنعان إمكانية حصوله على ولد، وبما أن الحادثة واحدة ولكن القرآن عبر عنها في كل مرة بأسلوب مختلف من حيث التقديم والتأخير، فهنا يجب علينا التفكر والنظر بالسبب فالقرآن كأنما يريد أن يظهر لنا الاضطرابات والأسباب الطبيعية التي تحول بين زكريا والإنجاب برأيه، فعمد النص القرآني في كل آية أن يجيب على أحد تساؤلاته ففي آية آل عمران عندما قدم (الكبر) اجابه سبحانه وتعالى {قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} (سورة آل عمران ٤٠)، أي أن الله سبحانه لا يعجزه كبر سنك اذا أراد رزقك فهو يفعل ما يريد.

وفي آية مريم جاء النص القرآني بالسبب الثاني الذي يؤرقه وهو (عقر أمرأته)، وأيضا رد الله سبحانه وتعالى على تساؤل زكريا بشأن زوجته وقال له { كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} (سورة مريم ٩) أن أمر عقر زوجتك وإصلاحها هينٌ مقارنة بالخلق الجديد، فيدفع أي دهشة وغرابة بنفسه من خلال ضربه لمثال خلقه، فكأنه سبحانه يريد أن يقول له أنت لم تكن موجود أصلاً وقد خلقتك وهيأت الأسباب لمجيئك للدنيا ، أفتندهش أو تستغرب من أن اشفي علة تعاني منها زوجك هي برأيك سببٌ مانعٌ من رزقك بالأولاد؟!!. هذه الإيحاءات ممكن أن نلتمسها عن طريق التفنن

الأسلوبي في النص القرآني، فواقعاً أن التقديم والتأخير يجعلك تستشعر هذه الحيرة التي كانت تعتري زكريا وكيف دفع الله حيرته في الأمرين فلو بقيت الآية على سياق وأحد لربما يظل التساؤل الثاني الذي يدور في خلد زكريا، وكذلك في ذهن من يقرأ القصة قائماً فجاء الجواب للتساؤلين بأسلوب جميل فصيح بليغ ينطق بكل حرف فيه بإعجاز القرآن وعظمته. والله سبحانه وتعالى أعلم.

٢ – تقديم (من قومه) وتأخيرها:

نلاحظ أنَّ القرآن مرّة يقدم الجار والمجرور، و أخرى يؤخّره مثلما نجده في تقديم (من قومه) في قوله تعالى: **{ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ }** (سورة المؤمنون ٣٣) وتأخيره عن متعلقه في قوله تعالى **{ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}** (سورة المؤمنون ٢٤). ويعلّل الكرماني ذلك بقوله: ((لأنَّ صلة الذين فى الأولى اقتصرت على الفعل وضمير الفاعل ثم ذكر بعده الجار والمجرور، [ثم ذكر المفعول وهو المقول]، و ليس كذلك الأخرى. فأن صلة الموصول طالت بذكر الفاعل و المفعول و العطف عليه مرة بعد أخرى، فقدم الجار و المجرور؛ لأنَّ تأخيره يلتبس و توسطه ركيك فخص بالتقديم))(١٢). فيعزو الكرماني سبب التقديم والتأخير في الايتين الكريمتين لأسباب تتعلق بتركيب الجملة ورصانتها؛ لأنَّ في الجملة الثانية طالت صلة الموصول (الذين كفروا) واذا تأخر الجار والمجرور يحصل اللبس بمتعلقه، فيتوهم أنه متعلق بـ(اترفناهم في الحياة الدنيا)؛ لأنَّ الدنيا هنا اسم تفضيل من الدنو وليست اسماً، والدنو يتعدى بـ(من)، وإذا جاءت في وسط الكلام يصبح الكلام ركيكا وتختل فصاحته؛ لأنَّ تمام الوصف بتمام ما يدخل عليه الموصوف(١٣)، فقدمه لأمن اللبس والحفاظ على فصاحة تركيب الآية ورصانته.

وقد قال بهذا الرأي الخطيب الاسكافي قبل الكرماني (١٤) وأخذ به الغرناطي(١٥)، اما ابن جماعة(١٦) فقد اعتمد على توجيه الزمخشري (١٧) إذ يقول ((قوله تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ) في نوح، وقال بعده في قصة هود: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ) ؟.

جوابه: أن نوحاً لم يؤمن أحد من أشراف قومه، وهود آمن بعض أشراف قومه، فلذلك قال: (الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ))(١٨).

إنَّ ما جاء به ابن جماعة رأي حسن فقد عدّ تقديم الجار والمجرور على الصفة لشمول قومه جميعاً، وعندما تأخر الجار والمجرور أصبح هناك استثناء أي الخطاب لم يكن من قومه جميعهم، بل من

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ – المجلد ٤٩ – حزيران لسنة ٢٠٢٤

الذين كفروا فقط فهناك اشخاص مؤمنون لم يصدر منهم ذلك القول. والآية في الواقع تحتمل الرأيين ما قال به الكرماني وابن جماعة معاً. والله أعلم.

٣- تقديم (مما كسبوا) وتأخيرها:

قدم الجار والمجرور(مما كسبوا) في قوله تعالى: { **لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ** } (سورة إبراهيم ١٨) على (على شيء) وأخّره عنه في قوله تعالى: { **لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** } (سورة البقرة ٢٦٤). قال الكرماني: ((في قوله تعالى: [لا يَقْدِرُونَ] مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ، و القياس: عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا كما فى البقرة؛ لأنَّ «على» من صفة القدرة؛ و لأنَّ مِمَّا كَسَبُوا صفة لشىء و إنَّما قُدّم فى هذه السورة لأنَّ الكسب هو المقصود بالذكر، و أن المثل ضرب للعمل: يدل عليه قوله: أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ)) (١٩).

وعلل الكرماني التقديم والتأخير بسبب السياق أي لأنَّ المقصود من السياق هو الكسب، وفي الآية الثانية الاشياء التي اكتسبوها لن تنفعهم فالتركيز على ما اكتسبوا ، وهذه الآية من المتشابهات التي انفرد الكرماني بتعليلها فلم يسبقه الخطيب الاسكافي بتعليل، وتابعه على هذا الرأي ابن جماعة.(٢٠) وهناك من المفسرين من نقل نص الكرماني ولم يغيّر به شيئاً (٢١)، وصاحب البحر المحيط عدّ التقديم والتأخير هنا من التفنن بالفصاحة والمعنى واحد(٢٢).

ومن التفسيرات التي جاءت في هذه الآية أن آية سورة البقرة جاءت في سياق الانفاق والمنفق معطٍ وليس كاسباً، فأخّر الكسب وقدّم (شيء)، أما في الآية الثانية فقد جاءت في سياق العمل والعامل كاسب؛ لذا قدّم الكسب وأخّر الشيء. (٢٣)

ولتفصيل القول في الآيتين نلحظ سياقهما ففي آية سورة البقرة قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالاذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخر فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَان عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} (سورة البقرة ٢٦٤). والآية الثانية قال تعالى {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} (سورة إبراهيم ١٨). فقد تقدم قوله (على شيء) على قوله (مما كسبوا) في البقَرة. ثم تقدم قوله (مما كسبوا) على قوله (على

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ - المجلد ٤٩ - حزيران لسنة ٢٠٢٤

شيء) في سورة إبراهيم عليه السلام. فسياق آية سورة البقرة ورد ضمن خطاب للمؤمنين ينهاهم الله أن يكونوا مثل مَنْ يُنفق ماله رئاءً ولا يؤمن بالله واليوم الآخر. أما سياق الآية الثانية بيان مصير أعمال الكافرين جميعها حتى في الطاعات الظاهرة.

والقول الأول – في سورة البقرة – تعليمي إرشادي للمؤمنين. والمقصود به المنافق الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر، الذي ينفق ويريد أن تعود نفقته عليه بالنفع، يتظاهر بإنفاقها بين الناس موهماً أنه يبتغي وجه الله ويخفي قصده الحقيقي، فهذا الصنف من الناس كل أمله أن يحصل على شيء من إنفاقه، فقدم الله سبحانه (الشيء) وسلط عليه النفي لكي يقطع عليه أمله.

والقول الثاني: إنذاري تقريري للكافرين. وما سوف تكون عليه أعمالهم يوم القيامة، فالمقصود بآية إبراهيم هم الكافرون المعلنون لكفرهم، الذين تتعلق آمالهم بكسبهم إذ يظنون أنه سينفعهم، فعمد النص القرآني على تقديم ما تعلقت به نفوسهم وهو (الكسب) ونفى قدرتهم عليه، وفيه إشارة إلى عجزهم التام. (٢٤)

٤ – تقديم الضمير وتأخيره:

جعل القرآن ضمير المخاطب متصلاً بعد أن قدّمهم في قوله تعالى : **{ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ }** (سورة الأَنعام ١٥١), وفي آية أخرى أخّره وجعله ضميراً منفصلاً وقدّم ضمير الغائب عليه في قوله تعالى: **{ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ }** (سورة الإسراء ٣١). وبيّن الكرماني سبب ذلك بقوله ((قوله تعالى: نَرْزُقُكُمْ و إياهم(٢٥) و قال في سبحان: نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ(٢٦) [على الضد؛ لأنَّ التقدير فى الآية من إملاق بكم نحن نرزقكم و إياهم، و في سبحان: خشية إملاق يقع بهم نحن نرزقهم و إياكم]))(٢٧).

ومعنى ذلك عندما جعل ضمير الخطاب متصلاً (نرزقكم) كان قتل الأولاد بسبب الفقر الواقع فعلاً، وحينما جعل ضمير الغائب متصلاً (نرزقهم) كان قتل الأولاد بسبب احتمال الفقر الذي سيقع في المستقبل، هذا ملخّص رأي الكرماني الذي تابع الخطيب الاسكافي في رأيه (٢٨)، ومن جاء بعد الكرماني من العلماء الذين درسوا المتشابه اللفظي لم يأتوا برأي مخالف لما ورد عند الكرماني (٢٩) .

وما ورد عند المفسرين كله يصب في هذا المعنى ولا يخرج عنه سوى أن بعضهم أضاف أن هذا تفنن في الكلام (٣٠). وكذلك المحدثون من دارسي أساليب التعبير القرآني لم يضيفوا معنى جديداً الى ما ذُكِر سابقاً(٣١).

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٢ – المجلد ٤٩ – حزيران لسنة ٢٠٢٤

وخلاصة لما تقدّم يمكن القول إنَّ هذه الآية تجعلنا نستشعر جميل استعمالات النص القرآني للضمائر وبديعه في توجيه دفة الكلام و تبيين معناه ، فبمجرد تغيير الضمير و تقديمه وتأخيره اختلف معنى الكلام وأصبح يشير إلى قضية مختلفة تغاير سابقتها، فنفهم منها أن العرب قبل الإسلام نوعان: قسم فقير حقيقة وواقعاً لا يستطيع إعالة غيره، والقسم الثاني يخاف أن يفتقر إذا صار عنده أبناء، فالنص القرآني راعى في استعمال الضمير حال المخاطب، فنجده يطمئن القسم الأول بأنه سيرزقهم هم و أولادهم و يشعرهم بأن هؤلاء الأولاد سيكونون سبباً في رزقهم، أما الآية الثانية فهم يخشون الفقر إذا رُزقوا بالأولاد فيأتي الخطاب مطمئناً لهم بأن رزق أولادكم مكفول فلا تخافوا. إن تغيير الضمير فقط اشعرنا بكل هذه المعاني والتفاصيل، فحقيقة يقف المرء عاجزاً منبهراً أمام براعة هذا النص المقدس وبلاغته، واتقان نظمه للمعاني وإيصالها بأقل الألفاظ وأحسنها وأبهاها.

وقد جاءت آيات أخرى كثيرة فيها تقديم وتأخير في المتشابه القرآني وقد ذكرها الكرماني وأعطى لها تعليلات مختصرة، ولكن لعدم مناسبة المقام لذكر هذه الآيات بالتفصيل خشية الإطالة والتوسع نذكر بعضها على وجه الاختصار، ففي قوله تعالى { ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} (سورة الأنَّعام ١٠٢)، وقوله تعالى { ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إلا هُوَ فَأنى تُؤْفَكُونَ} (سورة غافر ٦٢) في هاتين الآيتين يذكر الكرماني أن التقديم والتأخير بحسب ما يقتضيه السياق فعندما كانت الآيات السابقة تذكر الشركاء قدم نفي الألوهية عن غيره، ولما كان السياق الذي قبل الآية عن الخلق قدم الخالقية على إثبات الألوهية، فيقول: ((قدم لا إِلهَ إلا هُوَ فى هذه السورة؛ لأنَّ فيما قبله ذكر الشركاء و البنين والبنات، فدفع قول قائليه بقوله: لا إِلهَ إلا هُوَ. ثم قال: خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

و في قبله ذكر الخلق و هو: لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الارْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ فجرى الكلام على إثبات خلق الناس لا على نفى الشريك: فقدّم في كل سورة ما يقتضيه ما قبله من الآيات))(٣٢).

ومن تعليلاته أيضا: التقديم والتأخير بسبب الاختلاف في الرتبة والمنزلة فيقول: ((قوله تعالى: أن الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هادُوا والنَّصارى والصَّابِئِينَ. وقال فى الحج والصَّابِئِينَ والنَّصارى (٣٣) وقال فى المائدة: والصَّابِئُونَ وَ النَّصارى (٣٤)؛ لأنَّ النصارى مقدمون على الصابئين فى الرتبة؛ لأنَّهم أهل كتاب، فقدمهم فى البقرة، و الصابئون مقدمون على النصارى فى الزمان؛ لأنَّهم كانوا قبلهم فقدّمهم فى الحج)) (٣٥).

الخاتمة

ونخلص بعد عرض هذه الأمثلة إلى أن الكرماني في بحثه عن علل ظاهرة التقديم والتأخير وأسرارها في متشابه القرآن الكريم، وقد كشف جماليات التعبير القرآني في توظيف هذه الظاهرة التي كانت سبباً واضحاً من أسباب ثراء الدلالة القرآنية وتعدّدها وجمالها، الذي جعل من النص القرآني نصاً لا تملّ قراءته ولا تنتهي عجائبه, وأن هذه الظاهرة تشكل سمة أسلوبية لها عظيم الأثر في روعة الأسلوب وإبرازه في صورة بليغة تفي بالمعنى وتطابق مقتضى الحال ، وتكشف خبايا النفوس وتطوع المعاني للاعتبارات المناسبة للمقام .,وقد ذكر أنَّ أغلب الاسباب التي جاء بها هي:

- مناسبة الفواصل كما في سورة مريم.
- موافقة السياق، وهذا يؤكد على أن السياق كان له الأثر الواضح في تكوين الدلالات القرآنية وانفتاح أفقها. وهو يدل على عجيب نظم القران وغريبه وأنه من لدن حكيم خبير وأنه لا يأتيه الباطل من بين ويديه ولا من خلفه ومن ثم يدل على صدقه وأحقيته.
- مراعاة حال المخاطب في التقديم والتأخير، كما في تقديم الضمير وتأخيره في آية **{نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ}** في سورة الانعام، و**{ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ}** في سورة الاسراء.
- من أسرار التقديم والتأخير مراعاة الاختلاف في الرتبة والمنزلة كما في التقديم والتأخير بين الصّابئين والنّصارى في آيتي المائدة والحج.
- ومن أسباب هذه الظاهرة؛ لئلا يحصل الالتباس بالمعنى بسبب متعلقات الكلام، كما في الآيتين (٢٤ و ٣٣) من سورة المؤمنون.

الهوامش:

١- ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: د. عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني: (٧٩/٢)

٢- ينظر: تجليات التعبير اللغوي في النص القرآني: د. فاخر الياسري: ٧٥.

٣- سورة مريم من الآيتين ٤، ٥ على التوالى.

٤- فواصل الآيات ١٠، ١١، ١٢ من سورة مريم.

٥- البرهان فى متشابه القرآن : ١٣٠.

٦- ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الالحاد والتأويل في توجيه متشابه اللفظ من آي التنزيل: ابن الزبير الغرناطي: (١/ ٨١-٨٢)

٧- ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني: ابن جماعة: (١/ ١٨١-١٨٢)

٨- ينظر: البحر المحيط فى التفسير: أبو حيان التوحيدي: (٣ /١٣٧-١٣٦)

٩- ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود: (٥/ ٢٥٦).

١٠- روح المعاني: الالوسي: (٨ / ٣٨٦).

١١- ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: (٢/ ١٧٧-١٧٨)

١٢- البرهان في متشابه القرآن: ص٢٤٨.

١٣- ينظر: البرهان في علوم القران: الزركشي: (٣٠٤/٣) و (٣٥٦/٣)

١٤- ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل: الخطيب الاسكافي: (٩٣٦/١)، والمتشابه اللفظي واسراره البلاغية (اطروحة دكتوراه): ٤٣٠.

١٥- ينظر: ملاك التأويل: (٢/ ٨٧٦)

١٦- ينظر: المتشابه اللفظي في القران الكريم واسراره البلاغية: ٣٢٥.

١٧-ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري: (٢/ ١١٦)

١٨- كشف المعاني (١/ ١٧٨-١٧٩)

١٩- البرهان فى متشابه القرآن: ٢١٢

٢٠- ينظر: كشف المعاني (١/ ١٢٠) .

٢١- ينظر: بصائر ذوي التمييز فى لطائف الكتاب العزيز: الفيروز آبادي: (١/ ٢٧٠)

٢٢- ينظر: البحر المحيط فى التفسير: (٦ / ٤٢٣).

٢٣- ينظر: التعبير القرآني : د. فاضل السامرائي: ٧٠- ٧١.

٢٤- ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (٢/ ١٧٥-١٧٧)

٢٥- سورة الأنعام {قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ} من الآية: ١٥١.

٢٦- سورة الإسراء {وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً } الآية: ٣١.

٢٧- البرهان فى متشابه القرآن: ١٦١.

٢٨- ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل: (٥٦٢/٢)

٢٩- ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني (١٦٩/١) ، ملاك التأويل القطاع بذوي الالحاد: (١٧٣/١).

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٢ - المجلد ٤٩ - حزيران لسنة ٢٠٢٤

٣٠- ينظر: البحر المحيط فى التفسير: (٤ /٦٨٧)، واللباب فى علوم الكتاب : (٨/ ٥٠٩)، وبصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز: (١ /١٩٩)، ومعترك الأقران فى إعجاز القرآن : (١ / ٩٣)، وفى ظلال القرآن : سيد قطب: (٤/ ٢٢٢٣)، وإرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم: (٥ /١٦٩) .

٣١- ينظر: التعبير القرآني: ٦٣-٦٤، وخصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: (١٨٣/٢)، وتجليات التعبير اللغوي في النص القرآني: ٧٦.

٣٢- البرهان فى متشابه القرآن: ١٥٩.

٣٣- سورة الحج {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} الآية: ١٧.

٣٤- سورة المائدة {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ} الآية: ٦٩.

٣٥- البرهان في متشابه القران : ١١٣.

المصادر:

[١] القران الكريم

[٢] أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها من غرائب آي التنزيل، محمد بن ابي بكر زين الدين الرازي، المكتبة العصرية – لبنان– بيروت، ط: ١، ١٤٢٣ هـ.ق.

[٣] الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الازرق، د. عائشة بنت عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، دار المعارف – القاهرة، ط٣، سنة النشر: ٢٠٠٤م.

[٤] الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، ٢٠مجلد، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) – قم المقدسة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ.ق.

[٥] البحر المحيط في التفسير، محمد بن يوسف أبو حيان، ١١مجلد، دار الفكر – لبنان – بيروت، ط: ١، ١٤٢٠ هـ.ق.

[٦] البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر الزركشي: ٧٩٤ هـ. ق، المحقق: الذهبي، جمال حمدي، دار المعرفة، بيروت: ١٤١٠ هـ. ق

[٧] البرهان في متشابه القرآن، محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: أحمد عز الدين عبد الله خلف الله، دار الوفاء –مصر – المنصورة، ط: ٢، ١٩٩٨.

[٨] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب فيروز آبادى، ٦مجلدات، جمهورية مصر العربية، وزارة الاوقاف، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية – مصر – قاهرة، ط: ٣، ١٤١٦ هـ.ق.

[٩] تجليات التعبير اللغوي في النص القرآني، د. فاخر الياسري، ط١، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد – الأردن، ٢٠١٨م .

[١٠] تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد أبو السعود، ٩مجلدات، دار إحياء التراث العربي – لبنان – بيروت، ط: ١، ١٩٨٣ م.

[١١] خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني (ت: ١٤٢٩هـ)، مكتبة وهبة، ١٩٩٢، ط١. ٢٧ –

[١٢] درة التنزيل وغرة التأويل، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني الخطيب الاسكافي، تحقيق: د. محمد مصطفى آيدين، جامعة ام القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها (٣٠) معهد البحوث العلمية، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٢هـ– ٢٠٠١م .

[١٣] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود بن عبد الله الآلوسي، ١٦مجلد، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.ق.

[١٤] في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦مجلد، دار الشروق – لبنان – بيروت، ط: ٣٥، ١٤٢٥ هـ.ق.

[١٥] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

[١٦] كشف المعاني في المتشابه المثاني، أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين (المتوفى: ٧٣٣هـ)، مصر، دار الوفاء، ١٩٩٠، ط١.

[١٧] اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي ابن عادل، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

[١٨] متشابه القرآن ومختلفه، محمد بن علي ابن شهر آشوب، ٢مجلد، بيدار – إيران – قم، ط: ١، ١٣٦٩ هـ.ق.

[١٩] المتشابه اللفظي في القران واسراره البلاغية، صالح عبد الله محمد الشثري، (اطروحة دكتوراه مطبوعة بالآلة الكاتبة)، جامعة ام القرى، كلية اللغة العربية، ٢٠٠١م– ١٤٢١هـ.

[٢٠] معترك الأقران فى إعجاز القرآن، عبد الرحمن بن ابى بكر السيوطي، ٣مجلد، دار الفكر العربي – لبنان – بيروت، الطبعة الاولى .

[٢١] ملاك التأويل القاطع بذوي الالحاد والتأويل في توجيه متشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، الحواشي: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢ مجلد، د.ت.